

د. عزام محمد أمين - سوريا
دكتور في علم النفس الاجتماعي وما بين الثقافات
جامعة ليون الخاصة - فرنسا
azzam_amin@yahoo.fr



في إحدى المقالات بعنوان "التحليل النفسي للسلوك المؤيد للطاغية" تناولت بالبحث الأسباب النفسية التي تدفع بالإنسان إلى تأييد الطاغية، ذلك التأييد الأعمى الذي قد يصل حد التأييد والعبودية (ظاهرة المنحكبجي، راجع مقالنا في مجلة "شبكة العلوم النفسية العربية" أو في موقع "الحوار المتمدن"). السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل الطاغية هو من يدفع بمؤيديه إلى تأليهه؟ بشكل آخر هل يريد الطاغية أن يكون مؤلهاً؟ هل هو من يطلب من مواليه الطاعة العمياء والتقديس؟ ولماذا؟ هل يدرك الطاغية أنه ظالم و مستبد؟

في هذه المقالة سأحاول الاجابة عن هذه الأسئلة و تقديم لمحة مبسطة عن التركيبة و البنية النفسية لشخصية الطاغية ، يجب أن أنوه إلى أن عبارة "التحليل النفسي" الواردة في العنوان لا أستخدمها بالمعني الفرويدي و إنما فقط للإشارة إلى دراسة نفسية عامة عن طبيعة المستبدين وسلوكهم بشكل عام. صحيح أن لكل طاغية عبر التاريخ شخصيته المميزة و لكن هناك مجموعة من الطبائع و السمات مشتركة عند جميع الطغاة مهما اختلفوا في الزمان و المكان.

قبل الدخول في صلب الموضوع علينا أولاً التمييز بين أنظمة "الاستبداد الشمولية" و أنظمة "الاستبداد الديكتاتورية". فكل نظام شمولي هو حتماً ديكتاتوري و لكن ليس كل نظام ديكتاتوري هو شمولي بالضرورة. في الأنظمة الديكتاتورية (كنظام حسني مبارك، ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية...) يوجد عادةً نوعاً ما، هامش نسبي من الحرية النقابية و السياسية والاجتماعية (**تعددية محدودة**). بينما لا يتغلغل الاستبداد في كل مفاصل الحياة و أدقها في النظام الديكتاتوري، نجد النظام الشمولي لا يترك مؤسسة من مؤسسات المجتمع سواء كانت مدنية او عسكرية خارج هيمنته المطلقة (**تعددية معدومة**) موظفاً بذلك قدرات هذه المؤسسات، الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و الأمنية والإعلامية بشكل خاص لما يخدم رأس النظام (الرئيس او الملك) و الذي ينتقل بالتالي من "مرحلة الديكتاتور" إلى "مرحلة الطاغية" و التي يمكننا اعتبارها أعلى مراحل الاستبداد.

أولاً السمات النفسية العامة للطاغية

1- البارانويا (ميغالومانيا)

بشكل عام كل طاغية مصاب حتماً بمرض جنون العظمة (ميغالومانيا) ، فهو يختزل كل شيء في شخصيته و يرى العالم من خلالها فقط ، هو المركز و كل ما يدور حوله ينطلق من وجوده (سوريا الأسد ، ليبيا الفاتح من أيلول ، أسد العرب صدام حسين ، بوكاسا ، هتلر ، ستالين ، موسيليني...). جنون العظمة هذا يكون جزءاً من شخصيته "البارانوية" أو عرض من أعراضها، و البارانويا هي أحد أشكال ما يُسمى باللغة العربية "الذهان النفسي" وفي بعض الأحيان عقدة الاضطهاد والتأمر ، من أعراضها الهذيان الثابت و المنتظم. و رغم أن المصاب قد يبدو ظاهرياً سليماً من حيث القدرة العقلية والاستدلال غير أنه يبني استدلالته على أوهام وحوادث غير واقعية، وتجدر الإشارة إلى أن أول من تكلم عن هذا المرض هو العالم الألماني ريشارد فون كرافيبينغ (1879).

السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل الطاغية هو من يدفع بمؤيديه إلى تأليهه؟ بشكل آخر هل يريد الطاغية أن يكون مؤلهاً؟ هل هو من يطلب من مواليه الطاعة العمياء و التقديس؟ ولماذا؟ هل يدرك الطاغية أنه ظالم و مستبد؟

علينا أولاً التمييز بين أنظمة "الاستبداد الشمولية" و أنظمة "الاستبداد الديكتاتورية". فكل نظام شمولي هو حتماً ديكتاتوري و لكن ليس كل نظام ديكتاتوري هو شمولي بالضرورة.

الشخص البارانوي يكون بشكل عام طموحاً يُسخر كل شيء في سبيل الوصول إلى غايته ، يعتقد أن الجميع يريد النيل منه عبر حياكة مؤامرات خفية ضده ، لديه شعور دائم بالتهديد من قبل أعدائه (وإن لم يكونوا موجودين في الواقع يقوم بإجادهم في مخيلته) ، لذلك يكون

حذراً جداً ، غير متسامح
أبداً ، قلق حساس و سريع
اللاتهام للآخرين بالكذب
وبالتأمر عليه وخصوصاً لمن
يخالفه الرأي

بشكل عام يعيش الطغاة في عالمهم الخاص متفوقين على مجدهم الذاتي منفصلين تماماً عن الواقع ،
فمثلاً في تصريح لنيقولاي تشاوشيسكو رداً على سؤال لأحد الصحفيين عما إذا كانت المظاهرات التي
عمت مدن رومانيا ستؤدي للتغيير وهل يخشى أن تتطور الأمور للأسوأ ، قال : لا يوجد شيء مما
تتصورون ، واستطرد بعنجهية مستهزئاً "لن يحدث تغيير في رومانيا إلا إذا تحولت أشجار البلوط إلى
تين" ، بعد أربعة أيام فقط من هذا التصريح تم القبض على الطاغية هارباً مع زوجته و تم إعدامهما
رمياً بالرصاص.

تختلف درجة الإصابة بمرض جنون العظمة (ميغالومانيا) من طاغية لآخر ، بعضهم يكون على الحد
الفاصل بين الحالة المرضية و الحالة الطبيعية وبعضهم الآخر تشتد عنده الإصابة (صدام حسين ،
معمر القذافي ، بوكاسا ...) ، فمثلاً موت ربع أطفال جمهورية "أفريقيا الوسطى" في عام 1976
بسبب سوء التغذية و المرض و الفقر لم يمنع حاكمها العسكري جان بيدل بوكاسا من إنفاق ثلث
ميزانية الدولة في يوم واحد للاحتفال بتنصيبه إمبراطوراً عليها في الرابع من تشرين الثاني من العام
نفسه.

و في العراق، بينما كان الشعب العراقي جائعاً ومريضاً و الاقتصاد العراقي منهاراً تحت وطأة عقوبات
الأمم المتحدة في منتصف التسعينات، كان صدام حسين يشرف على بناء أكبر مسجد في العالم. كان
من المقرر بناء المسجد وسط بحيرة صناعية في منطقة المنصور في بغداد ، وكان من المفروض أن
يكون مؤلفاً من ثمانية منارات وقبة بارتفاع 150 متراً و يكون معداً لاستيعاب 100 ألف مصلي،
وبالطبع قرر صدام أنه سيجعل اسمه : مسجد صدام. و كان سيتم إنشاء جزر صناعية وطرق تمثل
الدول العربية داخل البحيرة فيما تحمل إحداها شكل بصمة إبهامه وكان الطاغية صدام يريد أن يقول
"أنا في مركز العالم العربي وفي استطاعتي إعادة تشكيله". تم غزو العراق من قبل الولايات المتحدة و
حلفائها عام 2003 مما وضع حداً لهذا المشروع الذي مازال هيكله يلوح فوق بغداد (أليكس إدوارد ،
2012).

الشخص البارنوي يكون بشكل عام طموحاً يُسخر كل شيء في سبيل الوصول إلى غايته ، يعتقد أن
الجميع يريد النيل منه عبر حياكة مؤامرات خفية ضده ، لديه شعور دائم بالتهديد من قبل أعداء (وإن
لم يكونوا موجودين في الواقع يقوم بإيجادهم في مخيلته) ، لذلك يكون حذراً جداً ، غير متسامح أبداً ،
قلق حساس و سريع الاتهام للآخرين بالكذب وبالتأمر عليه وخصوصاً لمن يخالفه الرأي.

2- الرأي و الرأي القاتل

طبائع المستبد لا يمكن أن تتسع لأي خلاف من أي نوع كان ، فهو لا يستمع لغيره و يعتقد انه دائماً
على حق و صواب ، أي اختلاف معه بالرأي هو جزء من المؤامرة عليه ، هذا الخلاف حتى لو كان
بسيطاً جداً يُشكل خطراً على سلطته وعلى وجوده لذلك يستوجب التخلص من مصدره وبدون أي تردد ،
فغالبا ما يكون الطاغية "سايكوباتي" يميل إلى السادية وخصوصاً في لحظات الغضب و الانفصال
حيث يسقط قناع العقل و التهذيب الذي عادة ما يحاول السايكوباتي إظهار نفسه بهما (هيرفي كليكي
"قناع الصحة" 1941). و هكذا كانت تكفي كلمة واحدة مخالفة لرأي صدام حسين أو معمر القذافي
كي تؤدي بصاحبها إلى العزل السياسي وربما التصفية الجسدية حتى لو كان من أقرب المقربين و من
أكثر الموالين المخلصين ، فالمستبد لا يعرف الرحمة أو الشفقة ، و انتقال الشخص من حيز الصداقة
معه إلى حيز العدو الخطير قد يحدث لأتفه الأسباب و التي ربما تكون وهمية، و هكذا قام ستالين و
هتلر و موسيليني و جمال عبد الناصر و ماوتسي تونغ و حافظ الأسد وغيرهم من الطغاة بتصفية كل
من يمكن أن يختلف معهم أو يهدد سلطتهم.

الطاغية متكبر ومغرور ينفرد برأيه و يستقل به و يعتقد أنه المصدر الوحيد للرأي الصحيح و الفكر

طبائع المستبد لا يمكن
أن تتسع لأحد خلاف من
أحد نوع كان ، فهو لا
يستمع لغيره و يعتقد انه
دائماً على حق و صواب ،
أي اختلاف معه بالرأي
هو جزء من المؤامرة عليه ،
هذا الخلاف حتى لو كان
بسيطاً جداً يُشكل خطراً
على سلطته وعلى
وجوده لذلك يستوجب
التخلص من مصدره وبدون
أي تردد

غالبا ما يكون الطاغية
"سايكوباتي" يميل إلى
السادية وخصوصاً في
لحظات الغضب و
الانفعال حيث يسقط قناع
العقل و التهذيب الذي
عادة ما يحاول
السايكوباتي إظهار نفسه
بهما

المستبد لا يعرف الرحمة
أو الشفقة ، و انتقال
الشخص من حيز الصداقة
معه إلى حيز العدو
الخطير قد يحدث لأتفه
الأسباب و التي ربما
تكون وهمية

الصحيح وقراراته، و يعتقد أيضاً أنه مهم جداً على الصعيد العالمي و أن قراراته التي تُعتبر دائماً حكيمة تشكل حجر الزاوية في السياسة العالمية. و كما هو دائماً عرضة لمؤامرة داخلية من أعدائه في الوطن هو أيضاً عرضة لمؤامرة خارجية من أعداء الوطن الذي يمثله و لا يوجد غيره قادر على تمثيله. أي إختلاف معه بالرأي أو نقد له يُعتبر إعتراض على سلطته و تمرد عليه و يستفزه لأنه يضع صورة العظمة التي يرسمها لنفسه موضع الشك.

3- القدسية

يذكر "عبد الرحمن الكواكبي" في "طبائع الاستبداد" أنه: "ما من مستبد إلا ويتخذ صفة قدسية يشارك بها الله" و يعتقد أنه على تواصل مع قوى عُليا يستمد منها قدرات خارقة لحماية اتباعه ، فأرادته هي إرادة الشعب المنبثق عنه و الممثل له و مهمته الأولى هي انقاذ هذا الشعب من المخاطر التي تحيق به. فالطاغية هو ملهم الشعب و مصدر الأمان بالنسبة له وهكذا فإن عبارة "سوريا الله حامياها" على سبيل المثال تعني ضمناً أن الله يحمي سوريا لا لشيء عند السوريين كشعب و إنما بفضل وجود القائد الرمز الملهم و المبارك من قبل الله.

هذه القدرات الخارقة (القوة ، الشجاعة و الإقدام ، الحزم ، الوعي و الذكاء غير الطبيعي ، الحنكة و الحكمة السياسية ، ...) تجعل منه شخصية تاريخية على مستوى العالم (تذكروا اللقاءات و الخطابات التاريخية للقائد الخالد مثلاً). هذا الاحساس بالعظمة و التفرد يقود الطاغية المستبد أحياناً إلى تصرفات غريبة (كاقتناء أسلحة مطلية بالذهب ، اقتناء حيوانات معينة كالأسود و النمر التي وجدت مثلاً في قصور صدام حسين و القذافي...) وأحياناً يقوده إلى سلوك مضحك ، فشخصية القذافي و لباسه و تصرفاته المدهشة كانت فكاهية ، أما إرادة شرح المفردات و التفلسف في لقاءات الأسد كانت غالباً ما تظهره بمظهر الضائع المضحك المنفصل عن الواقع ، من جهته كان صدام حسين يُقدم نفسه من وقت لآخر وبطريقة مثيرة للسخرية كأديب و كشاعر عربي كبير!

في الواقع كل طاغية يعاني من ضغوط نفسية كبيرة كونه المركز الوحيد و المطلق للسلطة في البلاد ، تؤدي هذه الضغوط إلى اضطرابات في بنيته الشخصية غالباً ما يستطيع ضبطها و السيطرة عليها في الأوقات الطبيعية ولكنها تظهر إلى العلن بشكل مفضوح في لحظات الانفعال و التهيج العاطفي كما في حالات : انجاز علمي أو تجاري ما ، نصر عسكري ، خوف و انكسار ، ثورة و تمرد عليه... في مثل هذه اللحظات يُكثر الطاغية من الوعود بالإصلاحات و لكن علاقته مع الإصلاح كعلاقة المجرم مع القضاء الذي برأه ، فأى تعديل حقيقي على هذا القضاء سيؤدي حتماً إلى محاكمته من جديد.

4- الشخصية المميزة

المستبد يُقدم نفسه كشخصية مطلقة تجتمع فيها المتناقضات ، فهو قوي جبار شجاع يضرب بيد من حديد بدون أي شفقة و بنفس الوقت لا يتردد عن ارتداء معطف الأب الحنون المحب الرحيم الحكيم الذي لا يتوانى عن تقديم العطاءات و المكرمات لاتباعه ، يمكننا أن نرى تعبيراً صارخاً لهذا التناقض في الألقاب التي اختارها الطغاة لأنفسهم أو دفعوا من حولهم لإختيارها لهم ، فبالرغم من قسوة جوزيف ستالين ومسؤوليته المباشرة عن قتل ملايين الناس أختار لنفسه لقب "أبو الفقراء" أو "الأب الصغير للشعوب" ، أما لقب كاسترو فهو القائد الأكبر "ليدر ماسيمو" ، و من جهته معمر القذافي فقد لقب نفسه بملك ملوك أفريقيا و بالأخ القائد ، أما ماوتسي تونغ فكان لقبه الموجه الأكبر ، و حافظ الأسد الأب المناضل و القائد الخالد...

يعتقد الطاغية أنه معصوم عن الخطأ فإذا حصل خلل ما و انتشرت الجريمة و الفساد و الرشوة فهذه مسؤولية الآخرين الذين لم يطبقوا جيداً نصائحه وتوجيهاته وهذا ما تلخصه مقولة "هو كويس بس اللي

الطاغية متكبر ومغرور
ينفرد برأيه و يستقل به و
يعتقد أنه المصدر الوحيد
للأجيد الصحيح و الفكر
الصحيح وقراراته، و يعتقد
أيضاً أنه مهم جداً على
الصعيد العالمي و أن
قراراته التي تُعتبر دائماً
حكيمة تشكل حجر
الزاوية في السياسة
العالمية

كل طاغية يعاني من
ضغوط نفسية كبيرة
كونه المركز الوحيد و
المطلق للسلطة في البلاد
، تؤدي هذه الضغوط
إلى اضطرابات في بنيته
الشخصية غالباً ما يستطيع
ضبطها و السيطرة عليها
في الأوقات الطبيعية
ولكنها تظهر إلى العلن
بشكل مفضوح في
لحظات الانفعال و التهيج
العاطفي

المستبد يُقدم نفسه
كشخصية مطلقة تجتمع
فيها المتناقضات ، فهو
قوي جبار شجاع يضرب
بيد من حديد بدون أجيد
شفقة و بنفس الوقت لا
يتردد عن ارتداء
معطف الأب الحنون
المحب الرحيم الكبير
الذي لا يتوانى عن
تقديم العطاءات و

حواليه فاسدين التي يُكرسها في أذهان مؤيديه. بينما مسؤوليته تكون فقط عن النجاحات و الانجازات فقد اختاره القدر لأنه شخص مميز ليس كالأخرين ولا يوجد أي شخص آخر يمكنه امتلاك مقدراته فهو واحدٌ أحد لم يكن له كفوًّا أحد، لذلك مكانه القيادة (فإما هو أو لا أحد) ، هذا المكان لا يمكن أن يُصبح شاغر إلا بموته وعلى الأغلب سينتقل إلى أحد أبنائه فالشخصية المميزة الفريدة المباركة يتم توريثها لا اكتسابها.

المستبد يشعر دائما بنشوة سلطته و يتحسها من وقت لآخر من خلال خطاباته الاستعراضية (هتلر ، جمال عبد الناصر ، كاسترو...) أو من خلال مظاهر التزلف التي يُجبر الشعب بشكل مباشر أو غير مباشر على القيام بها (مسيرات مؤيدة ، احتفالات ، شعر مديح ، أغاني تمجّد قوته ...) ولكنه في الوقت نفسه يتمتع بنزعة تدميرية مكبوتة في اللاشعور لديه و لا تنتقل هذه النزعة إلى الحيز الشعوري من شخصيته إلاّ حين يشعر بتهديد سلطته (راجع فرويد عن الخوف من الفناء في كتابه "قلق في الحضارة" ، 1929) فيكون مبدأه على غرار ما فعله شمشون "عليّ وعلى أعدائي" (حرق روما من قبل نبيرون ، وأمر هتلر بتدمير ألمانيا قبل موته ، إحراق آبار النفط بأوامر شخصية من صدام ، تدمير المدن بالصواريخ و الطيران في سوريا...) ، فالطاغية يضع نفسه في صورة كائن لا حدود لإمكانياته ولا لإرادته ولا يسمح لأحدٍ بأن يقف في طريق ممارسته لسلطته المطلقة (أحمد ابراهيم الفقيه ، 2011) وهو يُفضل الموت على ترك كرسي الحكم (تشاوشيسكو ، هتلر ، بول بوت ، صدام حسين ، القذافي...) ليس لأنه شجاع كما يحاول أن يصفه ما تبقى من أتباعه بعد رحيله و إنما لأنه لا يتصور وجوده و حياته و وجود غيره بدون سلطته.

ثانياً) الوسائل الرمزية أو الغير مباشرة للاستبداد

الوسائل المباشرة للاستبداد في الأنظمة الشمولية هي الجيش وغالباً ما يتم السيطرة عليه بشكل مباشر من قبل الطاغية و عائلته وهو مُسخر لخدمته و خدمة هذه العائلة (كوبا ، كوريا الشمالية ، العراق ، ليبيا ، سوريا ،...) . هناك أيضاً المنظومة البوليسية (قوى الأمن) التي تعمل ليلاً نهاراً على مراقبة المواطنين و زرع الخوف و الرعب في قلوبهم ، ففي نظام الاستبداد الشمولي كل مواطن هو عرضة للاتهام بالخيانة و التآمر على الوطن و إضعاف الشعور الوطني والقومي. أما الوسائل الرمزية و الغير المباشرة للاستبداد فهي:

1- العقيدة

يذكر ميشيل كورناتون في كتابه "التواصل الاجتماعي" (1998) أن كل نظام شمولي يستمد شرعيته من عقيدة ما (قومية ، أممية ، دينية...) وهي وسيلة للسيطرة على جميع الفئات العمرية في المجتمع (طلائع البعث ، شبيبة الثورة ، الشبيبة الهتلرية ، الشبيبة الشيوعية ، ..) و تُعتبر هذه العقيدة المصدر الشرعي للسلطة ، ولكن غالباً ما يتم تفرغها من محتواها و اختزالها بشخصية الطاغية فهو الوحيد القادر على فهمها بشكل صحيح و تطبيقها و حمايتها من الانحراف و تصحيح مسارها في حالة ابتعادها عن أهدافها (الحركة التصحيحية).

حالة الفصام النفسي و البارنويا التي يعيشها الطاغية تنعكس على العقيدة نفسها فنجد الفرق الشاسع بين الأفكار التي تتادي بها هذه العقيدة و سلوك من يتحدث بإسمها. وهكذا تحولت ديكتاتورية البروليتارية في الدول الشيوعية إلى ديكتاتورية طبقة حاكمة مستفيدة اغتنت على حساب الفقراء التي أنتت من أجل حمايتهم حسب مزاعمها، ولم يمنع البعث العربي الاشتراكي الذي ينادي بالحرية والاشتراكية و حماية الطبقة الكادحة من العمال و الفلاحين عائلة و أقرباء الأسد و صدام حسين من

يحتقذ الطاغية أنه معصوم عن الخطأ فإذا حصل خلل ما و انتشرت الجريمة و الفساد و الرشوة فهذه مسؤولية الآخرين الذين لم يطبقوا جيداً نصائحه وتوجيهاته وهذا ما تلخصه مقولة "هو كويس بس اللي حواليه فاسدين" التي يُكرسها في أذهان مؤيديه

الطاغية يضع نفسه في صورة كائن لا حدود لإمكانياته ولا لإرادته ولا يسمح لأحدٍ بأن يقف في طريق ممارسته لسلطته المطلقة

في نظام الاستبداد الشمولي كل مواطن هو عرضة للاتهام بالخيانة و التآمر على الوطن و إضعاف الشعور الوطني والقومي

في الأنظمة الشمولية يسعى الطاغية دوماً عبر وسائل إعلامه لأن يكون رمزاً للعقيدة من جهة و للوطن من جهة أخرى ، فلا يمكن الفصل بين الوطن و القائد و العقيدة

و أجد هجوم على شخص القائد هو انتقاص من قيمة الوطن و محاولة للنيل منه

للصورة الشخصية "بورتريه" مكانة مركزية خاصة في حياة الطاغية و حكمه فهي تنتشر في كل مكان و زاوية من الوطن

يذكر أحمد ناصر في مقاله عن "سيكولوجيا الطغاة و المستبدين" أن المصور الشخصي لهتلر "إينريش هوفمان" ألقت له حوالي 2.5 مليون صورة !

المستبد يعشق ذاته و نرجسيته هذه تصل حد الهوس فكما كانت الصورة كبيرة وضخمة كلما شعر بوجوده وقوته و بالرضح الذاتي عن الأنا المتضخمة

تختلف صورة الطاغية من فترة لأخرى بحسب المراد منها ، فتارة يكون الطاغية رجل علم مثقف حاملا معه كتاب و تارة رجل محارب حاملا سلاح أو لابسا الكاكي ، و لابد أن يكون هناك صورة حيث يظهر فيها باللباس الفلكلوري فهو رجل قادم من اغوار التراث الشعبي

نهب هذه الشعب و سحقه تحت سطوة الفقر و الحرمان بينما هم يعيشون في قصور فخمة ! في الأنظمة الشمولية يسعى الطاغية دوما عبر وسائل إعلامه لأن يكون رمزاً للعقيدة من جهة و للوطن من جهة اخرى ، فلا يمكن الفصل بين الوطن و القائد و العقيدة و أي هجوم على شخص القائد هو انتقاص من قيمة الوطن و محاولة للنيل منه ، فكما ذكر الوطن ذكر القائد و كلما ذكر القائد ذكر الوطن و هكذا على مدى سنوات حتى يصبح هناك خلط واضح بين الاثنين في أذهان مؤيديه ، فأى ثورة أو تمرد على النظام الشمولي و على القائد هي خيانة للوطن! يبقى السؤال المطروح هنا هو "هل كل عقيدة تؤدي حتماً إلى نظام شمولي؟"

2- الصورة

للصورة الشخصية "بورتريه" مكانة مركزية خاصة في حياة الطاغية و حكمه فهي تنتشر في كل مكان و زاوية من الوطن ولها وظيفتين :

- **وظيفة رمزية:** فوجود صورة الطاغية يُعبر عن قبول الطاعة و الولاء له ، لذلك يجب أن تكون موجودة في جميع الأماكن العامة والخاصة : الحارات و المؤسسات و مداخل المدن و القرى و الأسواق و الحدائق و الشركات العامة و الخاصة و الجامعات و المدارس و المستشفيات و المساجد و الأماكن الأثرية و الوزارات... ولا مانع من المبالغة في ذلك ، ففي الأنظمة الشمولية نرى صورة القائد البطل المغوار منقذ الأمة معلقة في أكبر الشوارع كما في أصغرها وفي البيوت و على السيارات الحكومية و الخاصة و على الكتب و الدفاتر المدرسية وحتى في المحفظات الشخصية. يجب أن يكون للطاغية حضور دائم ، فأنى وليت وجهك تجد أمامك نصبا كبيرا له أو جدارية عالية لرمز يرتبط به أو صور وملصقات تغطي الجدران يظهر فيها بمناسبة وبدون مناسبة.

يذكر أحمد ناصر في مقاله عن "سيكولوجيا الطغاة و المستبدين" أن المصور الشخصي لهتلر "إينريش هوفمان" ألقت له حوالي 2.5 مليون صورة !

- **وظيفة نفسية :** فالمستبد يعشق ذاته و نرجسيته هذه تصل حد الهوس فكما كانت الصورة كبيرة وضخمة كلما شعر بوجوده وقوته و بالرضح الذاتي عن الأنا المتضخمة ، هذه الأنا المتضخمة حد التورم تنعكس على تماثله التي تتوسط تقريبا جميع المدن و البلدات ، فالطاغية يسعى لتخليد شخصه من خلال الانتشار الهائل لصوره وتماثله وهي تمنحه الثقة بالنفس و الشعور بالعظمة لذلك لا يتردد بأمر أتباعه بأن يقوموا بتنظيم مهرجانات أو نشاطات خاصة للاحتفال بالصورة ، ففي الصين الشعبية كانت تنظم سنويا مسابقات لرسم صور ماوتسي تونغ ، أما في العراق فكان هناك معرض سنوي لصور صدام حسين يُنظم في بغداد ويستمر لمدة أسبوع و يقوم صدام نفسه بافتتاحه !!

تختلف صورة الطاغية من فترة لأخرى بحسب المراد منها ، فتارة يكون الطاغية رجل علم مثقف حاملا معه كتاب و تارة رجل محارب حاملا سلاح أو لابسا الكاكي ، و لابد أن يكون هناك صورة حيث يظهر فيها باللباس الفلكلوري فهو رجل قادم من اغوار التراث الشعبي (صور صدام حسين و حافظ الأسد باللباس العربي...)، ليقول للناس انه رجل ينتمي لأعمق الطبقات الشعبية وأكثرها تعبيرا عن الاصاله والانتماء والاتصاق بالأرض.

هذه النرجسية المتضخمة يختبئ خلفها إحساساً بالضالة وعدم الثقة بالنفس يحاول الطاغية دائما كبتها وكما اشدت ضغط المكبوت يأمر أعوانه بتنظيم الفعاليات التي تمجده (عقدة الضئيل أو عقدة نقص حسب تعبير ألفرد أدلر ، 1920).

3- البروباغندا و اللغة

بشكل عام في الأنظمة الشمولية لا يوجد شيء اسمه " إعلام " وإنما نوع من الدعاية الاعلامية الموجهة "بروباغندا" ، فجميع وسائل التواصل الجماهيري من صحف و راديو و تلفزيون تخضع بشكل مباشر ومُحكّم للطاغية أو أحد أفراد عائلته وتُعتبر البروباغندا الحامل اللغوي للعقيدة. من المؤكد أن كل نظام شمولي يعتمد على منظومة لغوية خاصة به ولكن مهما اختلفت هذه المنظومة من نظام شمولي لآخر حسب الزمان و المكان، يمكننا أن نلاحظ ثلاث أشياء:

- في زمن السلم و الاستقرار تتركز الدعاية الاعلامية على تمجيد الطاغية و التغني بمنجزاته العظيمة في مجال بناء الوطن و الاقتصاد وغالباً ما يحاول الطغاة ربط اسمهم بالحدائث و التحديث للتأكيد على أن الوطن قبل وصولهم المبارك للسلطة كان في عهد الظلمات ، فجد هناك بانى سوريا الحديثة و بانى العراق الحديث و بانى ليبيا الحديثة... و تكون المهمة الأساسية لوسائل الاعلام هي صناعة صورة استثنائية للطاغية ولنظامه لوضعه فوق مواقع الآخرين من حيث القدرات الفكرية وتمييز الأذاع و ابتكار أو توظيف قصص بطولات خرافية عن بعض الخوارق التي ترتبط ببعض سلوكيات القائد إلهام درجة اعتباره مصدر العلوم والآداب والفنون و الأخلاق و تميز الأداء و ابتكار أو توظيف قصص بطولات خرافية عن بعض الخوارق التي ترتبط ببعض سلوكيات القائد إلى درجة اعتباره مصدر إلهام الشعب في العلوم والآداب والفنون فالطاغية هو الراعي الأول للعلم و العلماء وهو "المعلم الأول" لأن المعلمون هم بناء الأجيال وهو الطبيب الأول و المهندس الأول و الفنان الأول و الجندي الأول والقدائي الأول و الفلاح الأول...

في جميع وسائل الدعاية (صحف، تلفزيون، راديو) يتم التركيز على الوحدة الوطنية و التلاحم بين القيادة و القاعدة الشعبية ، وقد ترفدها مفاهيم تتقدم أو تتراجع حسب السياق التاريخي، كالأشتركية والصمود والتصدي والتقدمية و الازدهار الاقتصادي و العلمي التي تعيشه البلاد بفضل حكمة و نكاه الطاغية.

طبعاً لا يخفى على أحد أن الإعلام في الأنظمة الشمولية لا يمكن أن يكون إلا إعلاماً منفصلاً تماماً عن الواقع على شاكلة الطاغية ، فغالباً ما تكون الحالة الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية مزرية و بعيدة كل البعد عن ما تصوره بروباغندا النظام ، فمثلاً بينما كان تلفزيون ألمانيا الشرقية يتغنى بالرفاهية و الازدهار الاقتصادي الذي يتمتع به مواطنوها كان المئات من الألمان الشرقيين يحاولون يومياً الهرب عبر الجدار الفاصل بين الألمانيتين معرضين حياتهم للخطر.

- في زمن الاضطرابات السياسية و الثورات و مع اول هزة سياسية تختفي عبارات الوحدة الوطنية و الكبرياء الوطني و عظمة الشعب الحضاري العريق الذي يرأسه القائد العظيم لتحل مكانها عبارات تجسد حالة الانقسام و الفتنة و الطائفية وتتحول البروباغندا إلى نوع من التجبيش و التخويف من المستقبل و التهديد و المقايضة "إما القبول بواقع الاستبداد و العبودية و إما الفوضى و الخراب". ابتزاز الشعب بالأمن ، مقابل تخليه عن مطلب الحرية هو المحرك الأساسي لإعلام الأنظمة المستبدة حين تثور عليها شعوبها وتحاول الأنظمة الشمولية تصوير شعوبها على أنها قاصرة ومتخلفة همجية غير قادرة على قيادة نفسها (شعوب لا تعرف ما هي الحرية و لا تستحقها) و هي بحاجة دائماً لحكم الطاغية القوي لضبطها و وضعها على الطريق الصحيح (التغني بالبوط العسكري) و إلا سيكون مصيرها الضياع و هكذا في فترات التمرد و الثورة تنتشر قصص العصابات المسلحة والخطف و الاغتصاب و الخبز المسموم و المشروبات المسمومة ليس فقط من أجل إثارة البلبلة و

تكون المهمة الأساسية لوسائل الاعلام هي صناعة صورة استثنائية للطاغية ولنظامه لوضعه فوق مواقع الآخرين من حيث القدرات الفكرية وتمييز الأذاع و ابتكار أو توظيف قصص بطولات خرافية عن بعض الخوارق التي ترتبط ببعض سلوكيات القائد إلهام درجة اعتباره مصدر العلوم والآداب والفنون

الإعلام في الأنظمة الشمولية لا يمكن أن يكون إلا إعلاماً منفصلاً تماماً عن الواقع على شاكلة الطاغية ، فغالباً ما تكون الحالة الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية للمواطن مزرية و بعيدة كل البعد عن ما تصوره بروباغندا النظام

في زمن الاضطرابات السياسية و الثورات و مع اول هزة سياسية تختفي عبارات الوحدة الوطنية و الكبرياء الوطني و عظمة الشعب الحضاري العريق الذي يرأسه القائد العظيم لتحل مكانها عبارات تجسد حالة الانقسام و الفتنة و

الطائفية وتتحول
اليروباغندا إلى نوع من
التجبيش والتخويف من
المستقبل والتهديد و
المقايضة «إما القبول بواقع
الاستبداد والعبودية و
إما الفوضى والخراب

سواء في زمن
الاستقرار أو الاضطرابات
السياسية هناك ثلاثة
مصطلحات مستخدمة
بشكل يومي في وسائل
اعلام الأنظمة الشمولية :
عدو ، مؤامرة ، خيانة. فمن
خصائص الأنظمة الشمولية
أنها تفتعل الأزمات وتخلق
أجواء متوترة ملائمة لإثارة
الحروب مع أعداء
خارجيين

المجتمعات التي عاشت
فترات طويلة في ظل
الاستبداد والقهر غالباً ما
تنتمي إلى منظومة من
أنماط السلوك الغريزي
التي يهتم أساساً على
خصائص الإنتهازية
والإنتقام والوصولية ،
فالتزلف والتذلل و
انسداد الأفق و
الانتماءات الضيقة و جد
الذات و تبخيسها

تضييع الحقيقة وحسب ، بل من أجل تأجيج المخاوف من المجهول و استنفار الهويات
العرقية أو الطائفية المضمره. فالخوف و الهلع يحرك غريزة البقاء، ويستنفر الشعور الجمعي
القطيعي للدفاع عن "نحن" ضد "هم" (غوستاف لوبون ، علم نفس الجماهير ، 1895) ومن
أفضل من النظام الذي نعرفه للدفاع عن هذه ال "نحن" المهتدة بالإبادة في حالة رحيله؟
- سواء في زمن الاستقرار أو الاضطرابات السياسية هناك ثلاثة مصطلحات مستخدمة بشكل
يومي في وسائل اعلام الأنظمة الشمولية : عدو ، مؤامرة ، خيانة. فمن خصائص الأنظمة
الشمولية أنها تفتعل الأزمات وتخلق أجواء متوترة ملائمة لإثارة الحروب مع أعداء
خارجيين ، فكل نظام شمولي عدوه الخارجي والمهمة الأولى له هي مقاومة هذا العدو وأي
مطالبة بحقوق الانسان و العدالة و تحسين الأوضاع المعيشية هي مؤامرة المقصود منها
إضاعة الوقت و الجهد. في مثل هذه الأجواء يجد الطاغية مجالاً مناسباً لممارسة عنفه و
القتل دون حسيب أو رقيب (ميول سايكوباتية) و لإرضاء عقده الاستعراضية القيادية و
الخطابية. تاريخ الطغاة من جنكيزخان وهولاكو و نيرون الى هتلر وموسيلني وماوتسي تونغ
و ستالين وصولاً الى جمال عبد الناصر و صدام و القذافي و الأسد يشهد بحقيقة هذه
الحالة الحربية التي يضع فيها الطاغية شعبه.

إن بروباغندا الأنظمة الشمولية لا يتم فرضها دائماً بالقوة ، فاللغة الحاملة للعقيدة ومصطلحاتها تدخل
في الاستعمال الشعبي و الجماهيري حتى لو لم تتبنى هذه الجماهير عقيدة النظام. المواطن الذي يشقى
من أجل الحفاظ على نفسه و تحسين حالته يتبنى بشكل لا إرادي لغة النظام ويستخدمها لأنه يعمل
أنها المفتاح الوحيد للنجاح وحماية النفس.

إن ما عرضناه في هذا المقال من تحليلٍ لشخصية الطاغية "سمات نفسية و وسائل استبداد رمزية" لا
يعود كونه تأملات ودراسة لا تدعي الشمول في عرضها للواقع، ولا تدعي العلمية البحتة. هي محاولة
أولية بسيطة لفهم شخصية المستبد و آلية عمل أنظمة الاستبداد الشمولي. إن الخطورة الأكبر لهذه
الأنظمة لا تكمن فقط في أنها تمنع شعوبها من التمتع بحقوقهم المستحقة فحسب، (رغم أهمية
ذلك ومركزيته) بل في أنها ، كما يقول فولتير ، تؤسس لأنساق من السلوك السلبي (نفاق) الذي
يؤسس بدوره لمرحلة أخلاقية هابطة ، مهما كان الشعب (عربي ، أوربي ، أمريكي ، آسيوي ...)،
وبالتالي تساهم في صياغة شعوب مشوهة بنيوياً تفتقد لصفاتها الإنسانية (منقول بتصريف).
فالمجتمعات التي عاشت فترات طويلة في ظل الاستبداد والقهر غالباً ما تنتمي إلى منظومة من
انماط السلوك الغريزي الذي يعتمد أساساً على خصائص الإنتهازية والإنتقام والوصولية ، فالتزلف و
التذلل و انسداد الأفق و الانتماءات الضيقة و جلد الذات و تبخيسها (العرب جرب ، نحن شعب
متخلف ما بيمشي معنا غير البوط العسكري ، نحن لدينا مشكلة في ثقافتنا) و الأنانية و الفردية تصبح
المعيار الأساسي للوصول إلى النجاح في هذه الأنظمة.
من المؤكد أن إسقاط الطاغية يكون أسهل بكثير من إسقاط آثار النفسية و الاجتماعية لحكمه والذي
ربما يحتاج لسنوات عديدة بعد سقوطه.

Arabpsynet

Arabic Edition

<http://www.arabpsynet.com/defaultAr.ASP>

English Edition